كتاب تحت الأضواء

الموالي ونظام الولاء
من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي

عبد اللطيف أرناؤوط

الولاء نظام اجتماعي قديم في الحياة العربية ، يتميز بأهمية تاريخية بالغة ، ومن العسير على أي باحث في التاريخ العربي الاسلامي ، أو دارس لألوان تراثنا المتشعبة الواسعة أن يصل الى حقائق جازمة ما لم يفهم جيداً ، ويستوعب تركيب المجتمع العربي ، وتطوره عبر العصور ، بما في ذلك نظام الولاء الذي عرف منذ الجاهلية . وقد بدأ الاهتمام بالدراسات الاجتماعية التاريخية ، العربية والاسلامية في العصر الحديث ، منذ أن حاول المستشرقون دراسة تراثنا ، فكان لهم من الاحسان والاساءة نصيب، ذلك أن بعضهم لم يكن يقبل على دراسة هذا التراث بنية صافية تستهدف العلم والحقيقة ، فطمس الحقائق ، أو استدل عليها بالأخبار المحورة أو الناقصة ، وشوه ما طاب له أن يشوه ، وأساء بعضهم دون قصد لعجزه عن فهم تراثنا ، وغربته عن أعراف المجتمع وقوانينه الناظمة . وانعكست تلك الدراسات على نتاج بعض الباحثين العرب الذين استقوا من المستشرقين أحكامهم دون تمحيص أو تحر للحقائق .

وتضطلع الجامعات في البلدان العربية والاسلامية بمهمة اعادة النظر فيما كتب حول تراثنا من منظور علمي وبالاستناد الى مناهج في البحث سليمة ، وتتعمق تلك الدراسات كلما اتسعت دائرة البحث ، وأمكن اقامة شبكة من العلاقات بين المعارف والحقائق المستجدة تقرّب الأحكام والآراء من اليقين ،وتبعث على الاطمئنان .

والكتاب الذي نحن بصدده للدكتور (محمد مقداد) بعنوان (الموالي ونظام الولاء .. من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي) دراسة من ثلاثة أجزاء يشكل هذا الكتاب أحدها ، وأما الجزءان الآخران فيتناولان محاولة الباحث جمع أشعار حوالي (٩٠) شاعرا

من الشعراء الموالي في عصر بني أمية ، مع دراسة أدبية لهذه الأشعار ، على أن دراسة المؤلف للموالي في عصر بني أمية لم تكن باكورة الدراسات في هذا المجال فقد سبقه اليها باحثون معاصرون ، ومنهم من ألف فيه كتاباً متخصصاً مثل محمد الطيب النجار في كتابه: « الموالي في العصر الأموي » ، ومنهم من عالج الموضوع ذاته في اطار أعم كأحمد أمين في ضحى الاسلام وفجره · ومحمد نبيه حجاب في كتابيه : « الصراع بين العرب والموالي » و « مظاهر الشعوبية في الأدب العربي » (حتى آخر القرن الثالث الهجري) وجواد علي في كتابه « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » الذي تناول فيه نظام الولاء في الجاهلية · اضافة الى كتب التاريخ العربي الاسلامي السياسية والحضارية · على أن الدكتور المقداد أفاد من هذه الدراسات وغيرها من المراجع العربية والأجنبية ، وتميز بحثه بالموضوعية والدقة مما تمتاز به الدراسات الجامعية عادة ، وعزز أحكامه بالشواهد الأدبية والتاريخية وقد ساعده جمع أشعار الموالي في عهد بني أمية في تقديم بحث متكامل يتسم بالغنى والجدة ·

* * *

يتألف الكتاب من ثلاثة أبواب ويقع كل باب في ثلاثة فصول متوازية يراوح عدد صفحاتها من ٦٠ الى ٨٠ صفحة من القطع المتوسط وهو مذيل بخلاصة مكثفة ، وثبت لمصادر البحث وفهرس المحتويات ، والكتاب جيد الطباعة ، يكاد يخلو من الأغلاط المطبعية التي شاعت كثيراً في عمل المطابع الآن · حسن التبويب والتقسيم والاخراج ·

في الفصل الأول من الكتاب تحدث المؤلف عن القبلية العربية وأعرافها في الجاهلية، اذ يتعذر على القارىء فهم نظام الولاء ما لم يقف على التنظيم القبلي ، فالانتساب للقبيلة في الجاهلية كان أشبه بالبطاقة الشخصية في عصرنا ، أو بالجنسية ، ومن هنا حرص العرب على حفظ أنسابهم ، والحفاظ على بقائها ، فانتساب العرب الى عدنان وقحطان كانت له آثار لا تنكر في حياة العرب الاجتماعية ، وكانت الرابطة القبلية هي الاطار الأمثل للدفاع عن البقاء ونيل الحقوق ، وهي البديل عن الانتساب الى الدول في عصرنا ، فالقبيلة وحدة سياسية مستقلة ووحدة اجتماعية لها أعرافها وتقاليدها وهي أشبه ما تكون بدولة مصغرة ، وكانت وحدة الدم هي الأساس في هذه الرابطة ، على أن روابط أخرى كانت تنشأ من القبيلة والأفراد المجاورين أو الملتحقين بها دون أن تقوم على أساس من الدم ، بل كانت تفرضها المصالح المشتركة في مجتمع لا يعترف الا بالقوة وشعاره أبداً : « مَنْ عَزّ بَزّ » ·

ولم تكن القحطانية والعدنانية عصبية معروفة في الجاهلية ، فقد كانت العصبية ضيقة لا تتعدى حدود القبيلة ، وكثيراً ما كان الصراع يقع داخل بطون القبيلة ذاتها وأفخاذها بسبب تناقض المصالح مما يؤدي في آخر المطاف الى التفتت القبلي وظهور عصبيات أضيق ، لكن ذلك لا يمنع من أن العصبية القبلية ظلت من أقوى الروابط التي تربط الفرد بالجماعة ، فكان الأفراد يداً واحدة في الخير والشر ، بهدف توفير الحماية

ودفع قوة الآخرين ، وقد أدت العصبية القبلية الى ضعف الشعور بالترابط القومي مما كان له أكبر الأثر في صدر الاسلام وعصر بني أمية في شتى الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ٠

وكان النظام القبلي منتشراً قبل الاسلام في البوادي والحواضر ، دون أن يكون بين البيئتين فوارق قوية مميزة ، فأساليب العيش متقاربة ، وكانت حياة العرب تقوم على التجمع القبلي للغزو أو صد الغزو ، فهي تتسم بطابع الصراع ولا تعترف الا بالقوة ، وكان للقبيلة أعراف وتقاليد نافذة لها قوة القانون في عصرنا ، يشرف على تنفيذها شيخ القبيلة أو سيدها المنتخب ، وبه تتحقق وحدة القبيلة وعليه عبء ادارة شؤونها في السلم والحرب ، وقد يستعين بمجلس يضم رؤساء البطون الأساسية للقبيلة فيستشيرهم وقد يستبد برأيه أو يتخلى عنه تحت ضغط الجماعة ، وكان الغزو ثمرة خشونة الصحراء وجفافها ، فهو سبيل للبقاء في بيئة لا يعيش فيها الا من كان شرساً ٠ وينجم عن الصراع بين القبائل وقائع منها القتل وطلب الثأر عادة والعشيرة كلها تشترك في الجريرة ، فكل فرد من عشيرة القاتل معرض للموت ، وكل فرد من عشيرة المقتول مطالب بدمه ، ومن العار أن تنام القبيلة عن ثأرها ، اذ لا يكون الزهو والفخر الا بتنفيذ الثأر وغسل العار ، وقد يتم الثأر غيلة أو غدراً ، جهراً أو علانية ، وكان الخوف من الثار يدفع العرب الى الحد من ممارسة القتل ويتحرز منه تحرزاً شديداً الا ما اقتضته الضرورة القصوى ، وقد ينتهي الأمر بدفع الدية وهي اعتراف من أهل القاتل بغلطتهم وسوء تصرفهم ، وفيها اعلان عن ميول سلمية لحياة آمنة ، وكان بعض العرب يرى رفض قبول الدية لأن الدم لا يغسل الا بالدم ، ولا سيما القبائل القوية المنيعة ، وكانت الابل خير المال تدفع به المهور والديات ، وبلغ مقدار دية الشريف أحياناً ألفاً من الابل وقد يتنازل العدد الى خمسة نوق دية الرجل العادي من سواد القبيلة ، وتكون دية الحليف والعبد نصف دية الصريح من أبناء القبيلة ، وفي المعارك الكبرى يحصى القتلى ، فيتحمل أحد الطرفين دية القتلى الذين زاد عددهم عن قتلى الطرف الآخر ٠

ومن عادات العرب في الجاهلية الخلع ٠ وهو نفي الفرد أو طرده من القبيلة ، وحرمانه من جميع حقوقه اذا ارتكب جرائم وجنايات تضر بالصالح العام وكان الخلعاء يشكلون لأنفسهم تجمعات خاصة تضم أفرادهم من جميع القبائل فيغيرون على الأحياء وينهبون الأموال ويخلون بالأمن ويتم الخلع على رؤوس الأشهاد وفي المواسم والأسواق ، وقد يكون الخلع تدبيراً احترازياً كخلع شخصين بينهما ثأر في قبيلة من القبائل لئلا يمتد الثأر بينهما الى بطني القبيلة ، ولا تقبل القبائل الأخرى الخليع في عدادها ، فيعيش طريداً متشرداً في الفيافي والقفار ، وكان الخلع يزود حركة الصعاليك في الجاهلية بمدد بشري متواصل ، وقد عرف العصر الجاهلي عدداً من هؤلاء الصعاليك المشهورين كالشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكة ٠

وفي الفصل الثاني يتحدث المؤلف في الولاء ونظامه في القبيلة الجاهلية وقد صنف الباحثون طبقات القبيلة الجاهلية في ثلاث طبقات هي :

١ ـ طبقة الصرحاء من أبناء القبيلة ٠

٢ ـ العبيد من العرب والعجم والموالي وهم العبيد الذين أعتقوا ٠

٣ ـ العرب الأحرار المتحالفون مع القبيلة أو المستجيرون بها طلباً للنصرة والحماية ٠

والصريح من أبناء القبيلة أرفع مكانة وأوسع حقوقاً من الدخيل ، والصرحاء هم الطبقة العليا في القبيلة تربط بينهم وشائج الدم ، وقد ينسى انتماء أبناء الطبقات الدنيا الى القبيلة مع الزمن فيدمجون بأبناء القبيلة الصرحاء ويعدون بالتالي صرحاء مثلهم ٠

وللولاء في معجمات اللغة معان متعددة تدور كلها حول خمسة معان أساسية هي : السيادة والقرابة أو العصبة والنصرة أو التأييد والصحبة أو المعاشرة والمحبة ، والاسترقاق ، ويمكن رد هذه المعاني الى أصل واحد هو النصرة ، والمولى في اللغة من الأضداد فهي تدل على السيد المالك والعبد المملوك فالعصبية القبلية السائدة بين أبناء القبيلة الصرحاء هي عصبية طبيعية استلزمها الشعور المشترك بالانتماء الى جد واحد ، والعصبية القبلية السائدة بين فئات الطبقة الثانية (العبيد والموالي) عصبية مكتسبة بصورة مؤقتة تدوم ما دامت صلة الولاء قائمة ، ويرتبط نظام الولاء بالغزو بصلة قوية فقد بنيت على هذا الغزو أعراف قبلية أربعة هي : « الحلف » و « الجوار » و « الرّق » و« العتق »: وهي الأعراف التي قام عليها نظام الولاء في الجاهلية :

أ ـ ولاء الحلف :

كانت الحياة المتقلبة للقبائل بين الضعف والقوة بتأثير الولادات والهجرة والاختلاط ٠٠ تدفع القبائل الصغيرة الى عقد محالفات مع قبائل أقوى دفعاً لأذاها أو استعانة بها لدفع أذى القبائل الأخرى بهدف الحماية والاستقواء ، وقد يكون الحلف بين قبيلتين أو أكثر ، وقد يتساوى أطراف الحلف قوة أو ضعفاً ، وقد تتحالف بطون القبيلة ضد عدد من بطونها الأخرى ، والقبيلة التي تتقوى بالحلف بقبيلة أخرى أو تعدلها قوة يطلق على أفرادها اسم الموالي بمعنى الأنصار وعندما يكون الفارق واضحاً بين المتحالفين من حيث الضعف والقوة ، فان الموالي هم أبناء القبيلة الضعيفة بمعنى التابعين ، وفي مثل هذه الحالة قد تفرض القبيلة القوية أتاوة على مواليها لحمايتهم وهذا اللون من الحلف أشيع في الجاهلية من سواه وكان يتم بين القبائل العربية على الأغلب ٠

ب ـ ولاء الجوار :

يطلق لفظ الجار على معان عدة منها ما يتعلق بالحصول على الحماية والمحافظة على النفس والأهل والمال ، والجوار في الأصل هو المجاورة في المقام ، وعند ذلك يعني

ولاء الجوار المناصرة والمحالفة للجار، والاجارة من أن يظلمه أحد أو يقع عليه عدوان، ويكون بين فرد وفرد آخر من قبيلة أخرى، أو بين فرد وجماعة، أو من جماعة وجماعة أخرى، وتكون الرابطة آنذاك رابطة ولاء جوار، لأن من معاني كلمة « مولى » الجار، ويكون المستجير دائماً أضعف من المجير، وفي هذه الحال يتشرب الولاء معنى التبعية، فولاء الجوار يغلب عليه أن يقوم عادة بين طرفين غير متكافئين قوة، وكان من العار على الجار أن يسلم مجيره أو يتخلى عن نصرته عند الشدة، ولم يكن من حق الحليف والجار والمرأة والعبد أن يجيروا أحداً من الناس، لضعفهم عن القيام بالاجارة، وما من شك في أن ولاء الجوار لون من الانفتاح على القبائل الأخرى، وكثيراً ما كان يؤدي الى الاختلاط وقد يؤدي الى تناسي الانتماء القبلي أو يحل محله، ويبدو أن هذا اللون من الولاء كان سبيلا الى الاندماج أكثر من ولاء الحلف، والفارق بينهما أن ولاء الحلف يقوم على فكرة الدفاع وحدها، وقد ينتهي ولاء الجوار كولاء الحلف بالتخالع، حين يستغني أحد الطرفين عن الجوار، أو يقع ما يمنع استمرار الولاء، وبهذا التخالع تفسخ رابطة ولاء الجوار ولا يخفى أن هذا الولاء كان يتم بين العرب على الأغلب ·

جـ ـ ولاء الرق :

كانت مصادر الرق كثيرة منها الغزو والتجارة، فبالغزو تُسبى النساء والأولاد فيتخذون للتسري أو الزواج أو الخدمة اذا لم يفتدوا، أو يباعون في الأسواق حتى يضيع أثرهم في التنقل، وكان السبي والأسر مصدر رزق وفير للغزاة في البيع أو الفداء، وقد يقتل الأسرى اذا عجز أهلهم عن افتدائهم أو عزّ اطعامهم، أما النساء فالغالب أنهن يصبحن سريات أو زوجات ·

وكان الفداء يتم عن طريق وسيط محايد، وربما جرى في الأشهر الحرم في الأسواق المعروفة كسوق عكاظ وذي المجاز، وكانت الفدية تعدل دية الرجل عامة الا اذا نظر الى مكانة الأخير في قومه، وكانت تربية الصغير في القبيلة الغازية تغرس في نفسه مواطن الولاء لها، وهو غالباً لا يعرف أهله أو قبيلته الأصلية، وكانت بعض السبيات يفضلن الرجوع الى قبائلهن الأصلية كما جرى لزوج عروة بن الورد السبية ·

وكانت حاجة العربي تدفعه الى بيع مايملك من عبيد، وكانت تجارة الرقيق معروفة في أسواق العرب، ومن مصادرها الحروب أو التجارة، فالحروب بين فارس والروم كانت تزود أسواق العرب بالرقيق الذي مصدره الأسرى من الطرفين فيصدرون الى المناطق الأخرى ومنها جزيرة العرب، وأما الرقيق الأسود فكان يتسرب الى الجزيرة العربية من مصر واليمن، وقد ساعد غزو الأحباش للجزيرة على وقوع أسرى من الأحباش بأيدي العرب وتم تحويلهم الى رقيق يختلط بالسكان العرب في النهاية ويؤثر في ملامح الطرفين، وكان الرقيق الحبشي يسخّر للأعمال التي يترفع العرب عن ممارستها كالرعي والحلب، ويتسرى العرب بالحبشيات أو يتزوجون بهن، وقد عرفت الجاهلية نفراً

من الأشراف ممن أنجبتهم أمهات حبشيات ومنهم عمرو بن العاص وصفوان بن أمية وهشام بن عقبة وعمير بن جدعان . وكان أبناء العرب من الاماء يدعون الهجناء .

وكان ولاء الرق هو الرابطة التي تشد العبد الى سيده ، فولاء الرق يتخذ معنى المناصرة، وقد عرفت مكة بكثرة الرقيق فيها، وقد استفاد الرسول الكريم من هؤلاء العبيد لاضعاف مقاومة أهل الطائف حين حاصروا المسلمين بعد وقعة حنين فأطلق نداءه الشهير : « أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله » فلبت جماعات كثيرة منهم دعوته ونالت حريتها .

وكانت نسبة الرقيق العربي الى الرقيق من غير العرب ضئيلة جداً ، بسبب غيرة العربي على أهله أو خوف الغزاة من عواقب السبي ، وقد أسهم الرقيق الأجنبي في تطعيم العنصر العربي بملامح دخيلة من خلال التسري والزواج ، وادخال فنون من الغناء واللهو والعادات . ودخول جملة من الألفاظ الأعجمية من أصول متعددة .

وكان الرقيق الاجنبي يخضع لقدره ، ويعيش في مجتمع غريب عنه ، لكنه ينتمي الى دينه ومعتقده الشائع بين الناس في تلك الفترة .

د ـ ولاء العتق :

وهو رابطة تشد العبد بعد عتقه الى مالكه الذي مَنّ عليه بهذا العتق ، وهو لون من ألوان العرفان بالفضل للمالك الذي وهب العبد حريته، ولكن هذه الحرية كانت مقيدة مشروطة ، فالعبد العتيق يظل يدين لسيده ويتمتع بدرجة وسطى بين العبودية والحرية، وهذه الطبقة تعد أرفع من طبقة الموالي بالحلف أو الجوار في نظر القبيلة التي يدينون لها بولاء العتق ، لأنهم لا يحق لهم هجر القبيلة أو التخلي عنها الا اذا أعتق سائبة ، وفي غير هذه الحالة فان من حق السيد أن يرث عتيقه اذا لم يكن له وارث من أهله . وعلى العتيق أن يحافظ على أمن القبيلة ومكانتها ويدافع عنها كأحد أبنائها . وقد عرف العرب في الجاهلية عتق الرقيق على نطاق ضيق ، وغالباً ما كان يتم العتق مكافأة للعبد على خدمة جليلة ، أما عتق العبد سائبة فقد عرفه الجاهليون أيضاً وهو عتق العبد دون أن يكون ولاؤه لمعتقه أو لسواه من الناس ، فيصبح وحيداً لا عصبية له ، مما يعرضه للبؤس والخطر ولا ينقذه الا اقامة ولاء جوار على أساس فردي ، وغالباً ما يتعهد السيد بحماية العتيق على أن يرثه بعد موته ، غير أن الجاهليين كانوا لا يرثون العبد العتيق سائبة ، ويتحرجون من ذلك . ومن أنواع العتق التي عرفت بالجاهلية عتق التدبير وهو أن يعتق السيد العبد بعد موت السيد ، فيتم العتق بعد وفاة السيد ويكون ولاؤه لورثته، ويسمى العبد في هذه الحالة مدبراً ، وأما عتق المكاتبة فهو عتق يتم مقابل مال يدفعه العبد على دفعات محددة ، الى أجل معلوم فاذا استوفاه المالك تم العتق ونال العبد حريته .

وفي الفصل الثالث يستعرض المؤلف نظرة العرب الى العجم والصناعات ، فيشير الى أن العربي كان يعد الهجين من العرب وهو المولود من أب عربي وأم عجمية أحط مرتبة

من العربي الصميم الصريح النسب ، من ذلك موقف شداد من عنترة ، وكان زواج العربي من العجمية أمراً مستهجناً ، ولم يكن للعربي أن يقبل تزويج ابنته من أحد عبيده أو عتقائه ، أو من غير العرب ، فقد رفض النعمان مصاهرة كسرى ، ولم يكن ذلك الموقف تعالياً بل كانوا يؤثرون أن تظل بناتهم بين أهلهن وكان أهل البادية يكرهون الصناعات والحرف ويعدون الاشتغال بها حطة وعيباً ، ويعدون التجارة مهنة السادة الأشراف ، ولم تكن نظرتهم الى الزراعة أفضل من نظرتهم الى الصناعة ، وهم يفضلون عليها تربية الماشية ورعي الابل ، وأهل الحواضرمن العرب كانوا يعيرون المهجو بأنه قين أو ينحدر من قيون • اشارة الى انحطاط مكانته،ولكن ذلك لا ينفي أن بعض العرب مارسوا صناعات مختلفة في الجاهلية كالحدادة وصناعة النبل والبزازة والخياطة ، والجزارة ، والعطور ، وهذا دليل على تفاوت النظرة الى مثل هذه الأعمال بين البوادي والحواضر من العرب •

وفي الباب الثاني من الكتاب يعقد المؤلف ثلاثة فصول يتناول فيها وضع الموالي في صدر الاسلام ، فيتحدث في الفصل الأول عن عالمية الدعوة الاسلامية ودور الدعوة في اقامة تفاعل رحب بين العرب أنفسهم وبينهم وبين الشعوب الأخرى ، فهي دعوة انسانية شاملة تحفل بالرحمة والكف عن الأذى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ولئن بدأت الدعوة مقصورة على العرب أول الأمر فانهااتجهت الى الشعوب الأخرى بالمهادنة أولا ثم بالردع والرد بالمثل ، ولم تكن غاية الجهادفرض الدين بالقوة وانما كان الغرض منه نشر الاسلام وصونه من أعدائه ، وقد حرم على المسلمين دماءهم وأموالهم الا بالحق والرضى فأغلق الاسلام باب الغزو ووجه عنايته الى الفتح الخارجي باسم الدعوة الى الله والاسلام ، فان أجاب المدعوون الدعوة كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وان أبوا فالجزية أو السيف ، وكانت الأرض التي تؤخذ عنوة تعامل معاملة الغنائم ويحول خمسها الى الخليفة وتوزع الأخماس الأربعة الباقية على المقاتلين . أما الفيء فهو ما جاء عفواً أو سلماً بصلح وغيره ، وتدخل فيه الجزية والعشور وأنصاف العشور مما يؤخذ من أهل الذمة وعلى تجارتهم ، أو من تجارة أهل الشرك الداخلين الى أرض الاسلام بعهد ، يضاف الى ذلك خراج الأرضين التي صولح أهلها عليها. ومن الناحية العملية فان الأرض المغنومة عنوة لم توزع على المقاتلين بل ظلت ملكاً عاماً للمسلمين لا يتصرف بها ببيع أو شراء أو هبة أو ارث بل تبقى بيد أصحابهامقابل خراج يدفع للمسلمين •

أما ما كان يقع في يد المسلمين من الأسرى والمقاتلة والبالغين فكان حكمهم واحداً من أربعة : القتل أو الفداء بالمال أو بالأسرى المسلمين الذين بيد العدو ، أو المنّ عليهم بغير فداء أو الاسترقاق ، وأما النساء والذراري فليس عليهم قتل ، فلهم الاسترقاق أو المنّ أو الفداء ، والاسترقاق هو الغالب ، وكان الاسترقاق يتم بتوزيع النساء والذراري في حصص الفاتحين كما توزع الغنائم ، ولايجوز التفريق بين المرأة وولدها الصغير ، ويبطل نكاح السبيّة اذا كانت ذات بعل عندسبيّها ، ولو كان زوجها من أسرى المسلمين، ويحرم على المسلمين سبي أولاد أهل الذمة وبيعهم وشراؤهم ما داموا في ذمة المسلمين •

وقد تطور نظام الولاء في ظل الاسلام تطوراً تدريجياً ، فأزيلت الفروق بين السادة والعبيد المسلمين ، وحض الرسول الكريم الموسرين على تحرير الرقيق ، ولم يسترق أحداً من أسرى وقعة بدر الكبرى ، وروي عنه أنه قال بعد فتح مكة « لو كان يجري على عربي رق لكان اليوم انما الاسلام أو السيف» وبهذه الاجراءات أغلق باب استرقاق الرجل العربي اغلاقاً نهائياً ، ولم يسترق من العرب الا النساء والولدان ، وقد حدد الاسلام علاقة المولى بمولاه فقال النبي ﷺ « مولى القوم منهم » وقال « الولاء لحمة كلحمة النسب لا تباع ولا توهب ولا تورث » وبهذا التشريع الصريح تم الغاء بيع ولاء الرحم أو الصهر وتحريمه ، ولم يقر الاسلام عتق العبد سائبة ، لأن المرء قد يلجأ اليه للتخلص من عبيده المرضى والمسنين ، وأبطل الاسلام الولاء بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى اذ جعلهم طبقة واحدة هي طبقة أهل الذمة ، ويذكر أحمد أمين : أن المسلمين قد أباحوا لليهود والنصارى أن يتملكوا الأرقاء، في حين أن الدولة البيزنطية كانت تحرم على غير النصارى تملك أرقاء من النصارى . على أن هذه الاباحة لم تكن دائمة .

وقد استمر مبدأ عدم استرقاق العربي للعربي في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال قولته المشهورة انه « ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله وفتح الأعاجم » وقال : « انه لا سباء على عربي » بمعنى لاسباء في الاسلام ولا رق على عربي في الاسلام، كما سن عمر تشريعاً يقضي بتحريم رق النساء والولدان من العرب أيضاً ، وهكذا خرج العرب من ولاء الرق وولاء العتق ، فكان كل موالي الرق بعد هذا من الأعاجم وقد أبطل الاسلام الأحلاف لغايات عدوانية كما هي في الجاهلية وأبقى الأحلاف التي تعقد على الخير ، كاجازاته اقامة نوع من الولاء بين العرب والمسلمين من العجم يهدف بسط الحماية على من يدخل الاسلام من غير العرب، واستمر هذا اللون من الولاء في العصر الاسلامي والأموي لأن المجتمع ظل في بنيته قائماً على التركيب القبلي ، وطور علي رضي الله عنه نظام الولاء حين حكم بأنه « ليس على الموحدين سبي ولا يغنم من أموالهم الا ما قاتلوا به أو عليه » وشمل هذا التشريع العرب وسواهم من العناصر المسلمة ، وحصر الاسلام مصدر الرق بسبي أهل الكفر وأسرهم ، وحصر تجارة الرقيق بهؤلاء السبايا دون غيرها من المصادر القديمة . ولم يبق من أنواع الولاء القديمة الا ولاء الرق الذي خففه الاسلام لجعل العتق كفارة عن الذنوب وتقربا لله ، ودعا الى الاحسان معاملة العبيد وتخفيف الحدود عنهم .. وولاء العتق الذي شجع عليه الاسلام في آيات كثيرة ، ويمكن للعبد العتيق أن يتزوج أربع حرائر ويسمح له بامتلاك الاماء والعبيد .. وولاء الموالاة الذي يقتصر عقده على جماعة أو فرد عربي مع جماعة أو أفراد من الأعاجم المسلمين لأهداف انسانية كالحماية والمناصرة ، وقد اختلف الفقهاء فيه وتباينت الآراء حوله ،لكن الضرورة كانت تفرضه بسبب اتساع طبقة المغلوبين الذين عوملوا معاملة أهل الصلح .

وقد عُمِّم مصطلح الموالي فأصبح يطلق على المسلمين الذين ينتسبون الى مختلف العناصر الأعجمية ولو لم يكونوا عبيداً أو عتقاء ، ويذهب (الدكتور مقداد) الى ان هؤلاء الموالي يعدون عرباً بحكم نظام الولاء « لأن مولى القوم منهم » أو من أنفسهم

برواية أخرى ، وأكد الجاحظ هذه الحقيقة بقوله : « الموالي بالعرب أشبه واليهم أقرب وبهم أمس لأن السنة جعلتهم منهم » ويؤكد هذه الحقيقة ابن خلدون فيرى أنهم عرب العصبية والانتماء • والله تعالى يقول : في محكم تنزيله « انما المؤمنون اخوة» وكان من ثمار نظام الولاء الذي أدخل فئة كانت من قبل أعجمية في جملة العرب أن أسهم هؤلاء في بناء الحضارة العربية وبرزوا في مختلف الميادين الأدبية والفكرية والعلمية • وقد أسهمت ظروف مختلفة في حركة استعراب العناصر غير العربية، منها الاحتكاك المباشر بأبناء العربية والحياة بين ظهرانيهم ومنها تعلم العربية للأطفال ومنها تعلم العربية لأغراض دينية ، ومنها الاحتكاك مع العرب من خلال حركة الفتح والحروب المتواصلة ورغبة الأعاجم في تعلم العربية لتأمين مصالحهم وتسهيلها ، ورغبتهم في احتلال مكانة لائقة في الحكم الذي أصبحت لغة القائمين عليه عربية •• بالاضافة الى أن نسبة كبيرة من سكان بلاد العراق والشام كانوا عرباً ، وقد مال الرقيق الى الاسلام لما فيه من مساواة بين العبد والسيد ، وعدم تمايز الا في التقوى ، وسوّى عمر رضي الله عنه بين الفئتين في العطاء الا من كان له فضل أو سابقة أو قربى فاتخذوا منهم حجاباً وكتاباً ومستشارين ونواباً عن قادة عرب في بعض الثغور • غير أن مقتل عمر كان سبباً في نفور العرب من العجم عامة وأهل الذمة خاصة ، على أن الثقة بالموالي لم تتزعزع فقد أوكل اليهم مهمات جليلة فكان منهم نقلة الرسائل الخطيرة ، وحملة الرايات ، لأمانتهم وصدقهم ، وكانت لهم أدوار ثانوية في الصراعات التي قامت حول الخلافة وفي مقتل عثمان رضي الله عنه •

وفي الباب الثالث من الكتاب يصور المؤلف في ثلاثة فصول وضع الموالي في عهد بني أمية فيفند في الفصل الأول الزعم الذي تردد عند عدة مؤلفين حول نظرة العرب للموالي نظرة ازدراء في عهد بني أمية ومعاملتهم معاملة غير انسانية مستندين الى حوادث ذات طابع فردي • من ذلك ما يشير اليه (فان فلوتن) من أنه كان للموالي مساجد خاصة بهم ، فيرد المؤلف ذلك الى طبيعة التجمعات السكنية في المدن ، ويورد وقائع معاكسة تثبت تقدير العرب للموالي منها مدح جرير للموالي في احدى قصائده اذ يقول :

وأبناء اسحق الليوث اذا ارتدوا ... محامل موت لابسين سنوّرا
اذا افتخروا عدوا الصَّبَهْبَذَ منهم ... وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا

ومن ذلك تبوؤهم أعلى المناصب في الدولة كسعيد بن جبير الذي ولي القضاء ، وكان منهم في عصر بني أمية الحجاب وأصحاب خزائن بيت المال، ومن ذلك زواجهم من العربيات عملا بقول النبي الكريم ﷺ « اذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه » •

وكان من ثمرة اختلاط العرب بالموالي في عهد بني أمية تطور كبير في العادات والأخلاق حتى ليرى بعض الدارسين أن الجنس العربي الغالب قد اكتسب بهذا الامتزاج من حيث الكم ، ولكنه خسر من حيث النوعية اذ سرت العادات السيئة الى العرب من مواليهم ، ودخلت في حياتهم عادات لم يألفوها في الطعام والشراب والاحتفال بالأعياد الأعجمية، لكنهم

بالمقابل أفادوا من خبرات الأعاجم في مجال الحرف والصناعات ، وأدى انتقالهم الى المدن وتدفق الغنائم الى احتراف الزراعة فعمروا الأرض وأقاموا مشاريع زراعية متطورة ٠

وقد ضعفت العصبية القبلية في المدن لكن انتماء الموالي الى قبائل عربية ظل مستمراً فهم يعيشون في القبيلة ويحاربون في صفوفها اذا كانوا من الرقيق ، وتوسعت طبقة الموالي الأحرار بمرور الزمن فكانوا أنداداً للعرب في التعامل ، وكانت العصبية الاسلامية أنسب العصبيات للموالي مع أن الطابع الذي ساد الدولة الأموية هو الطابع العربي لأن الاسلام نزل بلسان العرب ولأن حملة الاسلام الى العالم كانوا عرباً ، وكانت حياة الموالي تتأثر بالعصبية القبلية والعربية والاسلامية والاقليمية ، وكانت معاني الاستقلال ضعيفة في نفوس الموالي من الفرس مما ساعد على تمثل العروبة ٠والانصهار ببوتقتها ٠ وقد تفرد الموالي في العصر الأموي بالغناء والموسيقا وعرف منهم مغنون بارزون ، وغدت المدنية التي كانت تعج بالموالي مدرسة العرب في الموسيقا والغناء ، وذهب (شوقي ضيف) الى أن الغناء لم يكن مستورداً ولو مارسه الموالي ، فقد كان يستند الى أسس عربية خالصة ٠ ونبغ من الموالي رجال مرموقون منهم سالم مولى هشام وكاتبه ابن المقفع والحسن البصري مولى زيد بن ثابت وسعيد بن جبير ومالك بن دينار ٠

وأما عن مواقف الموالي من دولة بني أمية فيرى بعض الباحثين أن الموالي خابت آمالهم بالحصول على ما للعرب المسلمين من الحقوق في عصر بني أمية فحقدوا عليهم ، ورد ّ هذه النقمة بعضهم الى سياسة الخراج ، ولعل من أبرز أسباب هذه النقمة استئثار العنصر العربي في عهد بني أمية بالحكم دون تطبيق سليم لنظرية الاسلام في المساواة ، ويرى الدكتور شكري فيصل أن تفاوت الأعطيات كان سبباً للثورات المتعاقبة على بني أمية، فقد ضعف مقدار العطاء باتساع الطبقات المختلفة التي كان يصنف بموجبها، فتزايد عدد الموالي قد حد ّ من تقديم عطاء مناسب لهم بسبب عجز موارد بيت المال عن الوفاء بهذه الحاجة ، ولا صحة لما يقال ان الموالي حُرموا من المناصب البارزة في عهد بني أمية فقد كان منهم ولاة مثل مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي ولاه معاوية مصر والمغرب وكان مولى ، واسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر وموسى بن نصير وكلهم من الموالي ، وكان منهم قادة مثل حيان النبطي وكان يتولى قيادة فرقة من الموالي في جيوش خراسان قوامها سبعة آلاف مولى ٠

وكان من الموالي أيضاً من تولى شؤون الدواوين كزادان فروخ الذي ولي ديوان الخراج زمن الحجاج وصالح بن عبد الرحمن الذي وليه بعده وكانا من الموالي وغيرهم كثيرون ٠

وفي هذا كله ما يدحض زعم من ذهب الى أن الموالي لم ينالوا من الحقوق في عهد بني أمية ما ناله العرب ٠

وعن اتجاهات الموالي الحزبية والثورية يرى المؤلف أن الموالي كانوا ينخرطون في صفوف الأحزاب السياسية وفق ولائهم ، فان كان الرجل خارجياً كان مواليه في مطلق الحالات من الخوارج وان كان أموي النزعة كان مواليه من أنصار بني أمية ، على أن هذه القاعدة ليست مطلقة ، فلم يقتصر الموالي على التبعية للعرب ، وانما كانت لهم نشاطات ثورية وحزبية خاصة ، فان كثيراً من الموالي أدخلوا كثيراً من الأفكار والبدع التي أسهمت في الانقسامات الدينية والسياسية • والمتطرفون منهم كانوا شعوبيين يعملون على تصفية الحكم العربي ، فقد سارع الموالي الى نصرة المختار الثقفي لتحقيق آمالهم في المساواة التامة مع العرب حتى صاروا خاصته ومستشاريه وحرسه الخاص ، وساوى بينهم وبين العرب في العطاء ، وحين قتل المختار قتل مصعب من جنده أربعة آلاف من الموالي ، وكان لهم اسهام في حركة الخوارج وان لم يقبلوا عليها اقبالهم على حركة المختار ، وساندوا ثورة زيد بن علي بالكوفة سنة ١٢٢ هـ وشاركوا في ثورة المرجئة (١١٦ هـ ــ ١٢٨ هـ) شرقي الدولة وراء نهر خراسان ، وأما نزعتهم الشعوبية المعادية للعربية فانها لم تتجل الا عند قلة قليلة منهم ، ولم تكن واضحة المعالم كما برزت في العصر العباسي ، أما مشاركتهم في تصفية حكم بني أمية من خلال الدعوة العباسية فان بني العباس اعتمدوا في دعوتهم على الموالي فقد كانت مشاركة تهدف الى المساواة بين العنصر العربي وغير العربي في الحكم تحت شعار الاسلام ولم تكن تهدف الى ازالة العنصر العربي نهائياً عن الحكم كما يرى المؤلف ،وهي تعبير عن الحقد على بني أمية أكثر منها تعبيراً عن الحقد على العرب عموماً •

هذه خلاصة عن الكتاب ، وبالرغم من جهد المؤلف في استقصاء الحقائق الا أن الموضوع يظل أقرب الى الدراسات التاريخية والاجتماعية منه الى الدراسة الأدبية ، وان بعض الأحكام التي توصل اليها الباحث والحقائق التي أضافها الى من سبقه ، يحتاج حسمها الى مزيد من التتبع والبحث بحكم دقة الموضوع وتشعبه ، ومع ذلك فان الكتاب يعكس جهد المؤلف ودأبه في تتبع المصادر والمراجع وحرصه على تناول المسائل من جميع وجوهها قدر ما سمح به البحث •

دمشق : عبد اللطيف أرناؤوط

* * *